قصة من الحياة

قلوب من حجر

للاستاذ يوسف يعقوب حداد

كان اسمه (محمود[1]) ولكن الناس ينادونه (أبوشوارب)! ولعل الناس على حق ؛ فهم لا يدعونه بمحمود لأنه في الحقيقة لم يكن محمود الصفات . وكانوا ينادونه (أبوشوارب) لأن خمسة عشر سنتمتراً من الشعر الأسود الكثيف كانت تغطي أعلى شفتيه !

ولو أردت نموذجاً ، صادق التعبير ، لصورة مجرم خطر ، لما ترددت في أن أقدم إليك محموداً ، فهو بعينيه الواسعتين ، وشاربيه الطويلين ، وأنفه الذي يشبه منقار الديك ، وشعر رأسه الكث ، الطويل ، ليبدو لك كما يبدو المجرم الخطر في فيلم من الأفلام المصرية

وفوق ذلك كان يشتغل بالتهريب . وهو عريق في مهنته ، يعرف كيف يضلل رجال الكمارك ويفلت من شباكهم ، فكان ربحه كثيراً ، ولكن مال الحرام للحرام — كما يقولون — فبقدر ما كان (أبو شوارب) يربح من طريق الحرام ، كان ينفق من ربحه على الحرام أيضاً ، حتى لم تبق في المدينة راقصة أو بائعة جسد الا ذاقت لذة دنانيره الدسمة !

والمصيبة أنه كان متزوجاً ، وله من زوجه ثلاثة أولاداً كبرهم في العاشرة ، وأصغرهم في ربيعه الأول ... ولكنه والله لم يكن يدري انه زوج لامرأة ، وأب لثلاثة أولاد ، اللهم إلا ساعة واحدة في كل أربع وعشرين ساعة ! . . فهو في النهار يمارس مهنته في الخارج . وربما في خارج البلد ، وفي المساء يقصد الملاهي والحانات ينشد المتعة بين كؤوس الخمر وأحضان الراقصات ، فاذا عاد إلى بيته في ساعة متأخرة من الليل ، عاد ثملاً ، فاقد الوعي . فيرمي بجسده المتهالك على فراشه وكأنه خرقة بالية . . . وقد لا يعود إليه رشده ، إلا قبيل الشروق ، ساعة يلتف حوله أولاده الصغار ، يوقظونه ليتناول فطوره ، لا هناه الله بفطور !

وزوجه المسكينة قد أذاقها صنوف العذاب ، وجرعها كؤوس العلقم ، حتى باتت المفجوعة تبتهل إلى الله في كل ساعة

(١) ملحوظة : الأسماء المحصورة بأقواس غير خاضعة لقواعد اللغة .

من الأعلام التي أخذ عنها الاهواني . فتجزع أن كتابا في الفلسفة الاسلامية يفيض بهذه الأسماء ، وتسأل نفسك : أليس بين هذه الأعلام علم عربي واحد في ميدان هو في الحق حلية للتراث الفكري عند المسلمين . ولكن الجزع لا يطول بك : لأنك تصادف من مراجع البحث في المقدمة الجليلة للدكتور الأهواني مرجعا ثمينا باللغة الفرنسية للدكتور ابراهيم بيومي مدكور ، طبع في باريس سنة ١٩٣٤ . وعنوانه مترجما . (مكان الفارابي في المدرسة الفلسفية الاسلامية) .

هذه كلمة حق أخرى في تلخيص كتاب النفس لابن رشد الذي أخرجه الدكتور أحمد فؤاد الأهواني مع كتب أربعة أخرى تتصل بالنفس والعقل والاتصال والمعرفة . ومن حق كتبنا القديمة أن لا نستكثر عليها كلمة أو كلمتين في مجلة أو مجلتين . أو أن نمن على محققيها بأن نتهم من الصديق عباس خضر بأننا نتبادل الثناء ونتقارض الإهداء ، ونتقايض التعريف بآثارنا الأدبية . ولو اطلع « العباس » على كتابي « بين السطور » لرآني محاولا قدر جهدي أن انتصف للحق ممن أعرفهم ومن لا أعرفهم من الأدباء والباحثين ، الذين أتشرف بعرض أفكارهم ونقد آثارهم . وكدت لا أذكر هنا صداقة وعداوة ، لأن مراد النفوس الكبيرة أكبر من أن تتعادى فيه أو أن تنغص فيه القلوب ، بذكر بغيض وحبيب ...

محمد عبد الغني حسن

من ساعات يومها ، وتطلب منه ، اما أن يعيد زوجها إلى صوابه، وإما أن يميتها فينتهي في الأرض عذابها ا.. ودموعها ، ما كانت تجف لحظة من مآقيها ا.. كيف لا تبكي ، وهذا زوجها لا يكاد يلتفت إليها أو يحسب حسابا لبيته ولأولاده ؟

كانت تخافه وتخشاه لما عرفت فيه من خشونة وقسوة ، ولكنها كثيراً ما كانت تضيق ذرعاً بأساها ، وينفذ معين صبرها فترمي [illegible] ، أو تلوذ به ، فتلقى من بادئ الأمر إعراضاً ، ثم ازدراء اللكمات ، وينزل على أم رأسها آلاف اللعنات ا.. ولولا أنها كانت تتهز فرصة سكره ، واستغراقه في النوم ، فتمد يدها إلى جيوبه ، تبحث في زواياها عما أفلت من يد الراقصات أو المومسات ، لما كانت تلقى ما تنفقه على أولادها وبيتها !

كانت الزوجة المسكينة تعاني كثيراً من العذاب والأسى والمرارة ، ولشدة ما كانت تعاني جف اللبن في ثديها وطفلها الثالث لا يزال رضيعاً ، فاضطرت إلى الاسراع في فطامه وظل في حاجة إلى اللبن ، وكان غذاؤه بسيطا يعوزه الكثير من العناصر التي تساعد على النمو ، فهزل جسده ، وذبل عوده ، ثم ما لبث ان لحقه السقام ، ولم يعد يكف عن الأنين والتوجع ... وكان كبد أمه يتفتت ، ونياط قلبها يتمزق، حين تسمع أنين ولدها وتعجز عن تخفيف الألم عنه ، وابعاد الأذى عن جسده النحيل وأبوه القاسي القلب ، لا يريد أن يعرف أن ولده يكاد يموت ، وأنه في حاجة إلى الطبيب ؛ لأن ذلك يكلفه مالا ! فراحت المسكينة تحمل ولدها من عجوز إلى عجوز ، تطلب عندهن الدواء الرخيص والشفاء الكاذب !

وذات يوم كنت في مقصورة جانبية في أحد الملاهي ، فرأيته يدخل الملهى مع اثنين من زملائه الأشرار ، واتخذوا مجلسهم في مقصورة مجاورة لي ، فسكتت أصواتهم يتحدثون ، وأراهم يشربون ويعبثون ، حتى قفزت إلى المسرح راقصة فارسية راحت تبدي من فنها الرخيص ما يلهب الحواس وفي جسدها المكشوف ما يسير الشهوات ، فاذا صاحبنا كله عيون وكله آذان ، وإذا هو يبدي إعجابه بالراقصة ويعلن تزميله رفبته في مجالستها ، وفعلا ما كادت الفارسية تنتهي في اداء (نمرتها) حتى أشار اليها أحد الصديقين اشارة فهمت معناها ، فاقبلت متماحكة لاهية ، وجلست على ركبتي صاحبنا (أبو شوارب) فاذا هو يفرط نشوته ، يأمر بزجاجة كاملة من (الويسكي) يشهد الله أن سعرها لم يكن يقل يومئذ عن العشرين دينارا ان لم يزد !

قلت لنفسي وأنا أرقبها من بعيد : « يالها من خبيرة ! انها تعرف دخائل النفوس ، وتجيد قراءة الوجوه . لقد رأت رغبة الرجل ، وأحست بالنار المتأججة فيه ، فعرفت كيف ترضيه ، وكيف تسلبه محفظته المنتفخة بالدنانير .

كنت أرقبها خلسة ، فرأيتها تضع رأسها وشعرها وتدفن عطرها ودلالها في صدر الرجل ، وتداعب بأناملها اللطيفة وجهه وتعرك بلطف أذنيه ، وسمعتها تتحدث اليه بالفارسية وقد رسمت على وجهها صورة صادقة التعبير لغرام عنيف وحب عظيم ، وسمعت أحد الصديقين يفسر (لأبو شوارب) كلمات المرأة الفارسية على أنها غزل وغرام عاصف به ، فانثنى (أبو شوارب) وانتفخت أوداجه ، وتراقصت على شفتيه شواربه ، وما كان منه إلا أن دس بين نهديها بورقة مالية ذات مائة دينار !

وفجأة .. رأيت صبياً صغيرا . اقترب من المقاصير وراح يتفرس في وجوه الجالسين ، فلما وقعت عيناه على (أبو شوارب) اسرع اليه يصيح — بابا ... بابا ... اسرع بربك ... إن أمي لفي حاجة اليك .

ولكن بابا ساعتئذ كان في عالم آخر ... قد أفقدته الخمرة شعوره ، وسلبته الفارسية وقاره ، فأخذها من يدها ومضى بها إلى مقصورة جانبية ليتم معها السهرة ، ولما سمع صوت ولده وهو يبكي ويولول هارباً لفظ من فمه كلمة سباب ثقيلة استأنست بها الراقصة الفارسية — فأطلقت هي الأخرى كلمة مقابلة اتبعتها بضحكة فاجرة وساوت مع صيدها الثمين .

ومع خبوط الفجر الحمراء ... عاد (أبو شوارب) إلى داره ولكنه ما كاد يقترب منه بضع خطوات ، حتى الفى الناس متجمهرين على بابه ، وسمع صراخ النسوة يتعالى من داخله ... فاطلق ضحكة طويلة ، وقال : مات ؟ ... الحمد لله .؟

وتابع سيره من غير أن يدخل الدار !

البصرة - عراق

يوسف يعقوب عداد